تاريخ العـــرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

المستشرق الانجليزي

ذلك هو كتاب تاريخ الأدب العربي للأستاذ رينولد نيكلسون ننشره ابتداء من هذا العدد تباعا كما وعدنا في العدد الماضي

المدخل لتاريخ العرب

العرب أمة من الأمم العظيمة التي تناسلت كما يقال من سام ابن نوح ، ومن ثم يعرفون عادة بالساميين ذلك اللفظ الذي يدخل فيه البابليون والأشوريون والعبرانيون والكنعانيون والسبئيون والأحباش والآراميون والعرب ، وبالرغم من أن هذا مبني على تقسيم غير مضبوط اجتماعياً (لأنه ورد في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ، أن الكنعانيين والسبئيين من ذرية حام) بالرغم من هذا فقد أحسن الاختيار Sickhorn المتوفى سنة ١٨٢٨م في فهمه للشعوب الشديدة الارتباط ببعضها التي ذكرناها . وسواء أكان الموطن الأصلي للجنس السامي المتماسك جزءاً من آسيا (كبلاد العرب أو أرمينية أو أدنى الفرات) أم أنه دخل آسيا من أفريقية[1] فهذا شيء لم يثبت بعد ، فهم (منذ زمن بعيد قبل بدء العصر الذي ظهروا إبانه على مسرح التاريخ) قد تشعبوا وكوّنوا أقواماً منفصلة ، ولا يمكن في هذا المجال شرح علاقات اللغات السامية ببعضها البعض . ولكن قد يستطاع ترتيبها ترتيباً زمنياً حسب انتشار الأدب كما يلي[2] :

١ — البابلية أو الأشورية (من ٣٠٠٠ — ٥٠٠ ق . م)
٢ — العبرية (من ١٥٠٠ ق . م)
٣ — العربية الجنوبية أو كما تسمى أحياناً السبئية أو الحميرية (نقوش منذ ٨٠٠ ق . م)
٤ — الأرامية (نقوش منذ ٨٠٠ ق . م)
٥ — الفينيقية (نقوش منذ ٧٠٠ ق . م)
٦ — الحبشية (نقوش منذ ٣٥٠م)
٧ — العربية (من ٥٠٠ م)

وبالرغم من أن العربية على هذا الاعتبار أحدث اللغات السامية إلا أنها تعتبر عادة أقرب صلة من أية واحدة أخرى إلى النموذج الأصلي السامي Urs emitich الذي اشتقت جميعها منه ، كما هو الحال في العرب — تبعاً لمركزهم الجغرافي وحياتهم الصحراوية المطردة التناسق — فقد حافظوا على الطابع السامي وظل فيهم — لاعتبارات خاصة — أنق وأبرز مما هو عند بقية الأمم المتفرعة من هذا الجنس . ومنذ عصر الفتوح الاسلامية الكبرى (٧٠٠ . م) حتى اليوم نشر العرب لغتهم ودينهم وثقافتهم في مساحة كبيرة من المعمورة تفوق كل ما كانت تشمله الامبراطوريات السامية القديمة . حقاً إن العرب لم يلبثوا طويلاً على الحال التي كانوا عليها خلال العصور الوسطى ، فلم يعودوا الأمة المسيطرة على العالم ، إلاّ أنهم قد استعاضوا عن ضياع السلطة الزمنية بالجدّ في نشر سلطانهم الديني . ولا يزال الاسلام حتى اليوم الحاكم الأعظم لآسيا الغربية ؛ أما في أفريقيا فهو في تقدّم مستمر ، حتى في أوربا ، فقد وجد في تركيا عوضاً له عن طرده من اسبانيا وصقلية . وبينما نرى أن معظم الشعوب السامية قد اندثرت غير مخلفة وراءها سوى ثبت طفيف غامض لا نأمل من ورائه أن نلمّ بتاريخها تماماً نرى في دراستنا للعرب مادة وفيرة تساعدنا على دراسة معظم أطوار تقدمهم منذ القرن السادس للميلاد ، تساعدنا على كتابة التاريخ العام للحياة والتفكير عندهم . ولست في حاجة لأن أقول إن هذا الكتاب لا يحاول أداء هذه المهمة حتى ولو زاد حجمه مراراً ؛ إذْ لابد من انقضاء زمن طويل قبل أن يقتحم الباحث ميدان الأدب العربي الواسع المناحي المختلفة ، وقبل أن تكون النتائج مقبولة لدى المؤرّخ

لم يكن « الربع الخالي » فحسب — الذي يخترق شبه الجزيرة ويقوم فاصلا طبيعياً دون الاتصال بالداخل — هو الذي

(١) H. G rimme : Weltgeschichte Karahterbildem (Muhammed, (Munich 1904), P. 6 S 99.

(٢) راجع تلدكه في Die Semitischen Sprachen (ليبزج ١٨٩٩) ومقاله «اللغات السامية Semitic Languages» في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشرة) أما كتاب رينان Histoire générale des langues فقد أصبح قديماً . وقد طبع هومل مقالا قيما عن أهمية الساميين في تاريخ الحضارة كمقدمة لكتابه المطبوع في ليبزج سنة ١٨٨٣ المسمى : Semitis chen Völker und Sprachen, Vol 1 والتواريخ المذكورة في هذا الجدول تقريبية

يقسم بلاد العرب منذ القديم الى قسمين : شمالى وجنوبى ، بل كان هناك أيضاً العداء الناشب بين جنسين بينهما بون شاسع من ناحية الطبع وأسلوب العيش . فبينما كان سكان القسم الشمالى (الحجاز وهضبة نجد الوسطى) بدوا غلاظاً يسكنون بيوتاً من الوبر وينتقلون من مكان الى آخر انتجاعا للعشب والكلأ لأبلهم كان أهل اليمن Arabia Felix معروفين لدى التاريخ — قبل كل شيء — كورثة لحضارة تالدة وأصحاب ثروة ضخمة خيالية من الطيب والذهب والأحجار الكريمة تحت إمرة الملك سليمان . وقد تكلم بدو الشمال اللغة العربية — أى لغة قصائد العصر السابق للاسلام والقرآن — على حين كان أهل الجنوب يستعملون لهجة يسميها المسلمون « الحميرية » التى عثر حديثاً على نموذج من خطوطها وفسّر . وسنسهب فى الكلام حالاً عن هؤلاء السبئيين الذين أطلق عليهم هذا الاسم جغرافيو اليونان والرومان . وقد أخذ نجمهم فى الأفول فى القرون الأولى للمسيحية حتى تلاشوا نهائياً من صفحة التاريخ قبل سنة ٦٠٠ م حينما أخذ جيرانهم أهل الشمال فى الظهور والقوة .

وليس من شك فى أن ما نشر بين علماء الأنساب المسلمين الفكرة القائلة بأن العرب يرجعون فى أصلهم الى رهطين منفصلين تسلسلا من جدّهم المشترك سام بن نوح هو الفارق الجنسى العظيم من الذكاء . أما فيما يختص بأهل الشمال فان تسلسلهم من عدنان (من ذرية اسماعيل) أمر معترف به من الجميع . أما أهل الجنوب فيرجعون الى قحطان الذى يزعم النسّابون أنه نفس يقطان بن عابر ؛ وتحت اليقطانيين الذين هم الأصل القديم نجد مدرجا مع السبئيين كثيرا من القبائل القوية كطيّ وتنوخ وكندة وغيرها من التى استوطنت بلاد العرب الوسطى قبل ظهور الاسلام بوقت طويل ، ولم يكن هناك ما يميّزهم من البدو الذين يرجع أصلهم الى اسماعيل . أما فيما يتعلق بعدنان فان سلسلة نسبه لا تزال موضع جدال وحجاج وإن اتفق الجميع على أنه من ذرية اسماعيل بن ابراهيم من هاجر . وتذكر القصة أنه عند ميلاد اسماعيل أمر الله ابراهيم أن يرحل الى مكة بزوجه هاجر وابنها ويتركهما هناك ، فامتثل لأمره وتركهما ، وجاءت رفقة من جرهم (وهم من ولد يقطان) فنزلوا شعاب مكة فنشأ اسماعيل مع أولاد الغرباء ، وتعلم الرمى ، ونطق بلسانهم ثم خطب اليهم فزوجوه امرأة منهم [1]

* * *

ولا جدال فى أن هذه الانساب خيالية إلى حد ما ، إذ لم يكن علم النسب موجودا فى العصر السابق للاسلام ، حتى لم يكن لدى المحققين المسلمين المتقدمين سوى أخبار طفيفة محيرة اعتمدوا عليها [2] . أضف إلى هذا أنهم راعوا الظروف السياسية والدينية وغيرها ، ومن ثم فان دراستهم للقرآن والتاريخ الدينى قادتهم لدراسة رءوس القبائل الذين يوضعون فى المقدمة . أما سلسلة النسب التى تبدأ بعدنان فلسنا نستطيع قبولها كمسألة تاريخية خالصة ، ولو أن أغلبها قد تراكم فى ذاكرة العرب قبل ظهور الاسلام ، يؤيد هذا شهادات شعراء الجاهلية [3] ؛ ومن ناحية أخرى أن نسبة كل قبيلة إلى جدّها الأول تخالف الحقائق التى أثبتها البحاث المحدثون [4] ، من أن كثيراً من الأسماء تشير إلى اتحاد محلى ، فمدّ مثلاً تشير فى الأصل إلى جماعات كبيرة أو محالفات قبلية . وقد يكون الخلاف الاجتماعى بين عرب الشمال وعرب الجنوب (كالعداء الحاد الذى فرّق بينهم منذ صدر عهد الاسلام [5]) قد يكون هذا الخلاف مقبولاً إذا قصرنا لفظ اليمنية (أهل الجنوب) على أهل سبأ وحمير وغيرهم من المتحضرين الذين سكنوا اليمن وتكلموا لهجتهم الخاصة ، ولكن يصعب أن يقصد به البدو اليمنيون المتكلمون بالعربية الذين انتشروا فى جميع رحاب شبه الجزيرة . وإن مثل هذا النقد لا يؤثر فى قيمة وثائق النسب باعتبارها صورة للعقلية العامة ، ومن وجهة النظر هذه تكون الخرافة أحياناً أهم من الحقيقة . وينبغى علينا أن يكون هدفنا فى الفصول التالية إيضاح معتقدات العرب غاضين النظر عن نقدها وبيان حظها من الخطأ والصواب

* * *

إن للعربية بأوسع معانيها لهجتين رئيسيتين هما :

ا — العربية الجنوبية وهى لسان اليمن ، وتشمل السبئية

(١) كتاب المعارف لابن قتيبة طبعة وستنفلد ص ٨٩

(٢) Goldziher : „Mohammedanische Studien part I, II. 133 e 99 177 s 99

(٣) Noldeke Z. D. N. G. Vol. 40, p. 177

(٤) Margolioutb: Mohammed and the tise of Islam

(٥) فى يتعلق بطبيعة الخصومة وأسبابها ارجع إلى كتاب جولد زيهر Muh. Studieu ج ١ ص ٧٨ وما يليها

والحميرية والمعينية واللهجات القريبة منها كلهجة مهرة والشحر

ب — العربية الفصحى التي ينطق بها في بلاد العرب عامة ما عدا اليمن . أما عن اللغة الأولى — دون التعرض لمهرى وسكُنْرى وغيرهما من اللهجات الحية — فليس لدينا سوى هذه المخطوطات العدّة التي جمعها الروّاد الأوربيون ، وستكون موضوع بحثنا في الفصل التالي الذي سأقدم فيه بحثاً موجزاً يتناول تاريخ السبئيين والحميريين القديم . والعربية الجنوبية تماثل العربية في تراكيبها القوية من الجمع الشاذ وعلامة التثنية ، واشارة الجمع باضافة م (وتستعيض العربية عنها بحرف ن) وكذلك في كلماتها . أما حروفها الهجائية التي تشمل تسعة وعشرين حرفاً فهي أقرب إلى الحبشية ؛ وقد استولى الأحباش على الأمبراطورية الحميرية في القرن السادس الميلادي ، حتى إذا كان حوالي سنة ٦٠٠ م أصبحت العربية الجنوبية لغة ميتة ، ومنذ ذلك الحين صار لهجة عرب الشمال السيطرة العظمى واتخذت لنفسها كلمة « العربية »

***

إن أقدم الآثار المكتوبة للعربية جديدة إذا قورنت بالنقوش السبئية التي يرجع بنا بعضها إلى ٢٥٠٠ سنة أو ما يقرب من ذلك إلى الوراء ، وباستثناء نقوش الحِجر في شمال الحجاز ونقوش الصفا المجاورة لدمشق (التي بالرغم من أنها قد كتبت بالعربية الشمالية قبل العهد المسيحي فهي أقرب إلى السبئية ولا يستطاع تسميتها بالعربية بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ) باستثناء ذلك فان معظم أقدم أمثلة الخط العربي التي اكتشفت قد كتبت بخطوط لهجات زبد[1] الثلاثية[2] ، وهي السريانية والأغريقية والعربية وترجع إلى سنة ٥١٢ أو ٥١٣ ، ولغتي حرّان[3] اليونانية والعربية التي ترجع إلى سنة ٥٦٨ م . ولسنا نريد أن نشغل أنفسنا كثيرا بهذه الوثائق[1] خاصة ؛ وإن ترجمتها تتطلب مشقات عظمى ، وكان القليلون من عرب العصر السابق للاسلام ملمين بالقراءة أو الكتابة[2] ، ويرجع الفضل في قدرة هذا النفر إلى المعلمين اليهود والنصارى ، أو إلى الثقافة الأجنبية التي انبثقت أضواؤها من الحيرة وغسان ، ولكن بالرغم من أن القرآن (وقد جمع لأول مرة بعد واقعة اليمامة سنة ٦٣٣ م) هو أول كتاب عربي ، إلا أنه يمكن ارجاع بداءة الكتابة بلغة الضاد إلى عصر متقدم . ومن الأرجح أن كل قصائد عصر قبل الاسلام التي وصلت الينا إنما ترجع إلى القرن السابق لظهور الاسلام (أي من ٥٠٠ — ٦٢٢) ولكن يد التفنن الصناع وإبداعها الفنيّ اللذين غيرا من شكلها الأول يقفان حائلاً دون الأمل بأن نعثر خلالها على الصورة الأولى للقصيدة العربية . وقد يمكن القول بشأن هذه القصائد الفخمة — كما هو الحال في الألياذة والأوديسّة — إنها « نتيجة فن بالغ حد الاتقان ، يستحيل أن يكون قد صار إلى ما صار اليه إلا بعد مرور عهد طويل على ممارسته » وقد ظلت هذه القصائد محفوظة طوال مئات السنين بالحديث الشفهي كما سنوضح ذلك في مكان آخر . وفي صدر عهد بني العباس أي بين عامي ٧٥٠ و ٩٠٠ م شرع الأدباء المسلمون في تدوين معظمها . ومن الحقائق الثابتة أن اللغة واحدة في القصائد التي يمثل أصحابها قبائل عدة مختلفة ونواحي متعددة من شبه الجزيرة . كما أن الفروق اللسانية طفيفة جداً إلى درجة لا يؤبه بها ، ومن ذلك نستنبط أن الشعراء كانوا يتخذون لهجة صناعية تخالف لغة المحادثة وهي أشبه ما تكون باللهجة الأيونية التي استعارها الشعراء الدوريون والأيوليون

(يتبع)

ترجمة محمد حسن حبشي

(١) زبد كما قال ياقوت : « زبد بفتح أوله وثانيه وآخره دال مهملة بلفظ زبد الماء والبعير ... قيل قرية بقنسرين لبني أسد ، قال محمد بن موسى زبد بفتح الزاي والباء في غربي مدينة السلام له ذكر في المتأخرين » (معجم البلدان ج ٤ ص ٣٧٤ طبعة مصر ١٩٠٦)

(٢) وقد طبعها لأول مرة Sachau في :

Monatsberi chte des Kös. Preuss. Ahad. der Wissenschaften zu Berlin

(فبراير سنة ١٨٨١) ص ١٦٩ وما يليها

(٣) De Vogüe : Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques, p. 117

ويجد القارئ مراجع أخرى عن هذه الناحية مذكورة في Z. D. M. G. المجلد ٣٥ ص ٧٤٩

(١) يمكن للقارئ أن يراجع في هذا الموضوع ما كتبه جولدزيهر في Muh. Studien ج ١ ص ١١٠ وما يليها

(٢) أخذت العربية في الظهور بخط العربية الشمالية في القرن الثالث للميلاد ، وربما كان أقدم ما كشف حتى الآن من الخطوط نقش يرجع إلى سنة ٢٦٨ م وهو الذي طبعه Jaussen و Savignac في : Mission Arche,ologique en, Arabie, Vol 1, P. 172 ومع أنه مكتوب بحروف آرامية إلا أن كلماته جميعها تقريباً عربية كما يرى ذلك مما نقله الأستاذ Horovitz في مجلة Islamic Culture (حيدر أباد الدكن) عدد شهر إبريل ١٩٢٩ ج ٣ رقم ٢ ١٦٩ هامش رقم ٢